

## أتلانتك كاونسل: تركيا ومصر تدفنان الأحقاد فيما يُعد نهاية للمحور الثالث الناشئ في الشرق الأوسط



نشرت مجلة أتلانتك كاونسل تقريراً للكاتب بورزو داراجاي يستعرض تحسن العلاقات بين تركيا ومصر بعد عقد من التوتر بين البلدين.

ويقول الكاتب إن زيارة الرئيس رجب طيب أردوغان إلى مصر في 14 فبراير شكلت علامة فارقة في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين اللذين وقعا في خلاف خطير خلال فترة نادرة من الاختلاف السياسي والأيديولوجي التي استمرت ما يقرب من عقد من الزمن.

محور ثالث ناشئ

ويشير الكاتب إلى أن الاجتماع الذي صُمم وصيغ بعناية بين أردوغان ونظيره المصري، الرئيس عبد الفتاح السيسي، كان بمثابة مراسم دفن نهائية لما كان ذات يوم محوراً ثالثاً ناشئاً في الشرق الأوسط. وكان هذا المحور مختلفاً عن معسكر الدول العربية الموالي للغرب الذي تقوده السعودية والذي يضم الإمارات العربية المتحدة والمغرب والأردن، فضلاً عن «محور المقاومة» الذي تقوده إيران والذي يتكون من حزب الله اللبناني، والحوثيين في اليمن، ونظام بشار الأسد في سوريا، والمليشيات الشيعية في العراق.

وتألفت تلك الشراكة (المحور الثالث الناشئ) من تركيا وقطر وحركات وأحزاب سياسية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا متجذرة في جماعة الإخوان المسلمين والشعبوية السياسية السنوية التي بلغت ذروتها في المنطقة في أعقاب الانتفاضات العربية عام 2011.

وزار أردوغان القاهرة آخر مرة في عام 2011، عندما جاء لإلقاء كلمة أمام جامعة الدول العربية بينما كان المتظاهرون المؤيدون للديمقراطية والإسلاميون لا يزالون يحتفلون بإطاحة الرئيس حسني مبارك الذي حكم البلاد لفترة طويلة. وفي أعقاب الانتفاضات العربية، أشاد الناشطون العرب والمفكرون الغربيون بأردوغان، الذي كان آنذاك رئيساً لوزراء تركيا، باعتباره النجم الأبرز بسبب نموذج بلاده المتصور للمبادئ الإسلامية المعتدلة داخل

ديمقراطية علمانية.

في ذلك الوقت، كان السيسي ضابطاً كبيراً غامضاً، ولكنه قوياً في الجيش وعضواً في المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الهيئة التي تولت السلطة في مصر بعد الإطاحة بمبارك في عام 2011. وخرج من الظل في عام 2013، عندما عزل وسجن الرئيس المنتخب ديمقراطياً محمد مرسي وإعادة بناء نظام مبارك العسكري الاستبدادي، ولكن وضع نفسه في المركز.

وقاد أردوغان الطريق في إداة الانقلاب، ذلك أنه رأى مرسي كرفيق سياسي. وقد رحبت تركيا بالمصريين - ومعظمهم من الإخوان المسلمين أو المعارضين ذوي الميول الإسلامية الفارين من حملات التطهير والاعتقالات الجماعية التي قام بها السيسي - مما سمح للناشطين بإطلاق محطات تلفزيونية والعمل بحرية نسبية. وألغت السلطات المصرية فجأة زيارة أردوغان المقررة إلى قطاع غزة عبر حدود سيناء. وبعد أشهر قليلة من الانقلاب، في نوفمبر 2013، خُفض مستوى العلاقات الدبلوماسية بين مصر وتركيا.

ومن المرجح أن أردوغان رأى في السيسي ذلك النوع من المستبد العسكري الذي قوض التطلعات الديمقراطية التركية منذ تأسيس الجمهورية. وقد أرسل الجنرالات الأتراك في الماضي أحد رموز أردوغان السياسية، عدنان مندريس المنتخب شعبياً، إلى المشنقة في عام 1961، وأبعدوا معلمه السياسي السابق، رئيس الوزراء نجم الدين أربكان، من منصبه في عام 1997.

ظلت العلاقات بين تركيا ومصر سيئة لسنوات. واقتربت مصر من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، اللتين تعتبران جماعة الإخوان المسلمين عدوهما اللدود.

وفي عام 2017، أطلقت دول الخليج، بدعم من مصر، حصاراً غير مسبوق على قطر بسبب طموحاتها الجيوسياسية ودعمها للجماعات الإسلامية الشعبية. وهبت تركيا لمساعدة الدوحة، ليس فقط عبر نقل مؤن الطوارئ جواً، بل أيضاً بنشر قوات إضافية، وتوسيع اتفاق التعاون الأمني الذي وقعته الدولتان في عام 2014.

وعلى الرغم من أن التوترات كانت تتطور منذ انقلاب السيسي، إلا أنه يمكن اعتبار الحصار وتداعياته بمثابة علامة على ظهور المحور الثالث.

وبعد وفاة مرسي في السجن عام 2019، ساءت العلاقات بين القاهرة وأنقرة. ووصف أردوغان السيسي بـ«الطاغية» واتهمه بأن له دوراً مباشراً في وفاة الرئيس مرسي، الذي توفي متأثراً بأزمة قلبية أصيب بها أثناء وجوده في المحكمة. وقال أردوغان: «إنهم جبناء للغاية لدرجة أنهم لم يتمكنوا حتى من تسليم جثته إلى عائلته». وفي الوقت نفسه، اتهم المسؤولون المصريون تركيا بدعم الجماعات الإرهابية.

أثر الصدع على التجارة. وانخفضت صادرات تركيا إلى مصر إلى أدنى مستوى لها منذ اثني عشر عاماً عند 2.3 مليار دولار في عام 2017، في حين انخفضت صادرات مصر إلى تركيا إلى أدنى مستوى لها منذ اثني عشر عاماً عند 1.2 مليار دولار في عام 2015.

والأخطر من ذلك هو أن تركيا ومصر - إلى جانب شركائهما - وجدتا نفسيهما على طرفي نقيض من الصراعات المسلحة والصراعات السياسية في جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ودعمت أنقرة المتمردين السوريين، في حين سعى السيسي إلى تخفيف التوترات مع الرئيس الأسد. وسعت تركيا إلى التواصل مع إيران حتى عندما كان شركاء القاهرة السعوديون والإماراتيون، بدعم من الرئيس الأمريكي آنذاك دونالد ترامب، في طليعة مواجهة طهران.

لكن الحرب الأهلية في ليبيا كانت ساحة المعركة الأكثر خطورة وحسماً بين المحور الذي تقوده السعودية والمعسكر التركي. وقامت القاهرة وأبو ظبي بنقل الأسلحة والمقاتلات، بما في ذلك الطائرات المقاتلة وكذلك قوات فاغنر العسكرية الروسية، إلى قوات جيش خليفة حفتر المتمركز في الشرق عندما شن هجوماً على طرابلس في عام 2019. وقامت تركيا، بدعم مالي محتمل من قطر، بنقل أسلحة ومستشارين عسكريين علناً للمساعدة في الدفاع عن الحكومة في طرابلس، والتي ضمت عناصر من فرع جماعة الإخوان المسلمين في ليبيا. وفي ليبيا نجحت تركيا لأول مرة في نشر طائرات بيرقدار الشهيرة الآن. وقد ساعدت الأسلحة التركية في صد قوات حفتر في حرب بالوكالة مكلفة ودموية.

ومع بداية عام 2021، أنهى الحصار المفروض على قطر بصفقة توسطت فيها واشنطن والكويت. وكان إنهاء النزاع منطقياً لسبب واحد، كان مرسي ميتاً. وقد قُضي على جماعة الإخوان المسلمين وأتباعها، إلى جانب حركات الإصلاح السياسي الداخلية في العالم العربي. وفشلت مقاومة حفتر المكلفة. وقد نجحت تركيا في إدخال نفسها إلى العالم العربي، حيث أنشأت وجوداً عسكرياً شبه دائم في الأراضي العثمانية السابقة، بما في ذلك ليبيا، وسوريا وقطر والصومال.

وعلى نحو فعال، لم يتبق شيء للقتال من أجله.

## تحسن العلاقات

وأثناء وجوده إلى جانب أردوغان في فبراير، قال السيسي إنه يرحب بـ«فترة الهدوء الحالية» في المنطقة. وقال: «أمل أن نتمكن من البناء عليها للتوصل إلى حلول دائمة للنزاعات العالقة».

وبعد أيام من لقاء أردوغان بالسيسي في 14 فبراير، جردت تركيا الجنسية التركية المكتسبة من القيادي السابق في جماعة الإخوان المسلمين محمود حسين وزوجته، إلى جانب خمسين عضواً آخر في الجماعة.

ويوضح الكاتب أن الاستمرار في حمل الضغينة سيضر كلا البلدين. ومع تراجع التوترات، انتعشت التجارة. وقفزت صادرات تركيا إلى مصر إلى 4.5 مليار دولار في عام 2021، بزيادة قدرها 43 بالمائة عن العام السابق، وإلى 4.5 مليار دولار في عام 2022. وزادت صادرات مصر إلى تركيا من 2 مليار دولار في عام 2018 إلى أعلى مستوى لها في عشر سنوات عند 2.6 مليار دولار في عام 2021، ورقم قياسي قدره 3.7 مليار دولار في عام 2022.

ومن المرجح أيضاً أن التصالح مع مصر، إلى جانب تقييد حرية جماعة الإخوان المسلمين في تركيا، كان مطلوباً للتقارب مع الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية، فضلاً عن الوصول إلى السيولة المالية الخاصة بهما وسط الأزمة الاقتصادية والتحديات السياسي الأكبر الذي واجهه أردوغان منذ عام 2003. وخلال ظهوره العلني في مصر الشهر الماضي، قال أردوغان إن البلدين التزما بمضاعفة حجم التجارة بينهما. وتحدث عن التعاون في مشاريع الدفاع والطاقة، بما في ذلك احتياطات الغاز في شرق البحر المتوسط.

وبينما بدأت التهذئة بين البلدين بشكل جدي في عام 2021، فإنها على الأرجح كانت لتبدأ في وقت أقرب لو لم يتوف مرسي، وهو الحدث الذي أدى إلى تصعيد حاد في الخطاب بين البلدين. بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية والتحول الإقليمي نحو مواقف دبلوماسية متعددة الأقطاب، بدأت أيديولوجية أردوغان السياسية تتغير في عام 2015. وذلك عندما تخلى عن آماله في مغازلة الناخبين الأكراد المتدينين أو الليبراليين الذين دعموه ذات يوم، واعتنق بدلاً من ذلك النهج المتشدد نفسه الذي يتبناه القوميون الذين عذبوا أسلافه الأيديولوجيين لعقود من الزمن.

كادت مصر وتركيا أن تنزلقا إلى صراع مسلح في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي عندما سعت الحركة القومية العربية بقيادة جمال عبد الناصر إلى جر سوريا إلى وحدة مصر المؤقتة مع العراق. لكن الخلاف الأخير بين مصر وتركيا كان شاداً. لقد تعارضت دولتان عسكريتان تركزان اهتمامهما المكثف لعقود من الزمن على الأمن الإقليمي وتمكين النخب المتميزة، بشكل كبير ليس على الحدود أو الموارد، ولكن على مسائل مبدئية، بما في ذلك الشرعية الشعبية، وحقوق الإنسان.

قبل زيارته التاريخية للقاهرة عام 2011، والتي خاطب فيها النشطاء في ميدان التحرير، كان من المقرر أن يزور أردوغان مبارك في زيارة دولة كبرى، على ما يبدو لتوقيع أنواع الصفقات التي أبرمها مؤخراً مع السيسي. وقد ألغى أردوغان تلك الزيارة بسبب رد فعل الرئيس على الاحتجاجات المستمرة في ميدان التحرير، وهي شهادة على التأثير البعيد المدى للانتفاضة العربية.

وقال أردوغان: «استمعوا إلى صراخ الناس، المطالب الإنسانية للغاية. دون تردد، استجيبوا لرغبة الشعب في التغيير».

لقد تبذرت هزات زلزال عام 2011 منذ فترة طويلة. وقد استقرت المنطقة في وضع راهن باهت يهيمن عليه المستبدون الذين يقسمون الغنائم خلف أبواب مغلقة. وقد ألمح كل من أردوغان والسيسي إلى دعمهما للقضية الفلسطينية وسط الهجوم الإسرائيلي على غزة، ولكن من غير المرجح أن يتخذ البلدان خطوات جريئة في هذا الصدد. وفي المستقبل المنظور، سوف تركز العلاقات بين تركيا ومصر على صفقات الطاقة الكبيرة، وأرقام السياحة، وتوسيع العلاقات التجارية المربحة.